(٣٠) السَّرِيّ السَّقَطي[١]

ذكر أبي الحسن السَّريّ السَّقَطي بن المُغلِّس روّح الله روحه:

خالُ الجُنيد وأستاذُهُ، وتلميذُ معروف الكرخي.

وكان السريُّ رحمه الله إمامًا في التصوف، كاملاً في أصناف العلوم، بحرًا في الحزن، جبلاً في الحلم والثبات، خزانةً للمروءة والشفقة، وأعجوبةً في الرموز والإشارات، وواحدًا في زمانه في الورع والأحوال السنية.

وهو أولُ من تكلّمَ ببغداد في الحقائقِ والتوحيد.

وكان يسكن ببغداد، وأكثرُ مشايخ العراق من مريديه، وأدركَ صحبة حبيب الراعي رحمه الله.

وكان في الابتداء من أهل السوق، وله حانوتٌ يجلس فيه للمعاملة، وقد أرخى سترًا في الحانوت، ويدخلُ خلفَهُ، ويشتغلُ بالعبادة والصلاة، حتى قيل: إنه كان يُصلّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعة.

جاء إليه رجلٌ من جبل لبنان زائرًا، وهو في السوق خلف الستر، فرفع السِّتر وسلّم عليه، وقال: الشيخ الفلالي في لبنان يُسلّم عليك. فقال السري: أهو في لبنان؟ قال: نعم. قال السري: ليس الاعتزالُ عن الخلق شغلاً كثيرًا؛ بل الرجلُ

---

(١) طبقات الصوفية ٤٨، حلية الأولياء ١٠/ ١١٦، تاريخ بغداد ٩/ ١٨٧، الرسالة القشيرية ٤٣، مناقب الأبرار ١٤٤، صفة الصفوة ٢/ ٣٧١، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٤٧٥، وفيات الأعيان ٢/ ٣٥٧، مختصر تاريخ دمشق ٩/ ٢١٥، سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٥، العبر ٢/ ٥، الوافي بالوفيات ١٥/ ترجمة ١٩٣، مرآة الجنان ٢/ ١٥٨، البداية والنهاية ١١/ ١٣، طبقات الأولياء ٢٣٢، لسان الميزان ٣/ ١٣، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٣٩، نفحات الأنس ٧٩، طبقات الشعراني ١/ ٧٤، طبقات المناوي ١/ ٦١٨، شذرات الذهب ٢/ ١٢٧، جامع كرامات الأولياء ٢/ ٢١.

من يكون في السُّوق مَشغولاً بالحقِّ، غيرَ غافلٍ عنه طرفة عين.

نقل أنه كان يبيع ويشتري، وليس له طمعٌ في الربح إلاّ لكلِّ عشرةٍ نصف درهم، ولا يأخذ أكثر من ذلك، وقد اشترى في بعض الأيام اللوزَ بستين دينارًا، وغلا سعرُهُ وارتقى إلى تسعين دينارًا، فجاء إليه الدَّلال، وأخبره عن السعر، فقال: إنّي لا أبيعُ إلاّ بثلاثةٍ وستين دينارًا، ولا آخذ على كلِّ عشرةٍ إلاّ نصفَ درهم. وقال الدلال: لا أبيعُ متاعَكَ بالنقصان. وهو لم يرضَ بالزيادة، ولم يبع.

وكان في الأول يبيعُ السَّقطَ، وهو ما في جوف الحيوان من الكرشِ والأمعاء وغيرها، يُقال لها بالفارسية سقط، ولهذا نُسبَ إليه[1].

نقل أنه وقعَ حريقٌ[2] في السوق، فقال: الحمد لله، الآن فرغتُ. والحال أن دكانه لم يحترقْ، فدخل الدكان، وفرَّقَ جميعَ ما كان فيه على الفقراء موافقةً للأصحاب، وتجرَّدَ، وسلك طريق التصوف كالرجال.

سئل عنه ابتداء حاله، قال: مرَّ بدكاني يومًا حبيبُ الراعي، فأعطيته شيئًا، وقلت: اصرفه على الفقراء. فقال: جزاك الله. فبردتِ الدنيا على قلبي إلى أن جاء إليَّ معروفُ الكرخي يومًا، ومعه صبيٌّ يتيم، فقال: اكسُ هذا اليتيم. قال السري: فكسوته، ففرح به معروف، وقال: بغَّضَ اللهُ إليك الدنيا، وأراحَكَ ممّا أنت فيه. فقمتُ من الحانوت، وليس شيءٌ أبغضَ إليَّ من الدنيا، وكلُّ ما أنا فيه من بركات دعاء معروف، ولم يبالغ أحدٌ في المجاهدة والرياضة مثلَ مبالغته وسعيه واجتهاده.

قال الجنيد: ما رأيتُ أحدًا أكملَ في العبادة من السريِّ، مضى عليه ثمانون أو تسعون سنةً ما اضطجع إلاّ في مرض الموت.

---

(١) قال ابن سعد في الأنساب ٧/ ٩١: السَّقطي: هذه النسبة إلى بيع السَّقَط، وهي الأشياء الخسيسة كالخرز والملاعق، وخواتيم الشبه والحديد وغيرها.

(٢) في (أ): وقعت نار.

قال: منذ أربعين سنة نفسي تشتهي حلواء الجزر، وما أعطيتها شهوتها.

وقال السريُّ رحمه الله: أَنظرُ كلَّ يومٍ إلى أنفي كذا مرّةً مخافةَ أن يكونَ قد اسودَّ وجهي من شؤم ذنبي.

وقال: تمنّيتُ أن يجتمعَ في قلبي ما في قلوبِ الخلائق من الأحزان، لتفرغ قلوبهم عن الهموم.

قال الجُنيد رحمه الله: دخلتُ على السريِّ يومًا، وهو يبكي، فقلت: وما يبكيك؟ قال: جاءتني البارحةَ صبيةٌ وقالت: يا أبتِ، هذه ليلةٌ حارَّةٌ، وأعلّقُ هذا الكوز ليبردَ [في] الهواء، ثم إنه غلبتني عيناي، فنمتُ، فرأيتُ جاريةً من أحسن الخلْق، فنزلَتْ من السماء، فقلتُ: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يشربُ المبرَّدَ في الكيزان. وتناولت الكوز، وضربت به على الأرض. قال الجنيد: رأيتُ الخزف المكسور لم يرفعْه، ولم يمسَّه حتى عفاه التراب.

قال الجنيد: كنت نائمًا ليلةً، فتقاضاني سريٌّ الذهاب إلى الشُّونيزية إلى مسجدِ أُويس، فمضيتُ إلى باب المسجد، ورأيت هناك شخصًا هائلاً، ففزعتُ منه، فقال لي: يا جُنيد، أتفزعُ مني؟ قلت: نعم. قال: فلو عرفتَ الله تعالى لكنتَ لا تخافُ غيره. قلت: من أنت؟ قال: إبليس. قلت: كنتُ أَطلبُ أن أراك. فقال: إذا تفكّرْتَ فيَّ غفلتَ عن الله تعالى، وما لك معي؟ قلتُ: أردتُ أن أسألَ عنك: هل لك سلطةٌ على الفقراء؟ قال: لا. قلت: لِمَ؟ قال: لأنه إذا أردتُ أن أمسكَهم بالدنيا يفرّون إلى الآخرة، وإن أردتُ أن أُمسكَهم بالآخرة يفرّون إلى الله، ولا مجالَ إليَّ هناك. قلت: وإذا لم يكن لك عليهم يدٌ، فهل تراهم أحيانًا؟ قال: نعم، إذا اتفق لهم سماعٌ أو وجدٌ، أراهم، وأعلم إن أتيتهم من أين يكون. قال هذا وغاب عنّي، وأنا دخلتُ المسجد، فرأيت السَّريَّ رضي الله عنه واضعًا رأسه على ركبته، فرفع رأسه، وقال: كذبَ عدوُّ الله، هم أعزُّ على الله تعالى من أن يكشفَهم على جبريل، فكيف يُريهم إبليس اللعين؟!.

قال الجنيد: كنت يومًا مع السريِّ، فمررنا على جماعةٍ من المُخَنَّثين،

فخطر ببالي أنَّ عاقبتَهُم كيف تكون؟ فقال السريُّ: ما خطرَ على بالي أصلاً أنَّ لي فضلاً على مخلوق. قلت: ولا على المخنثين؟ قال: ولا عليهم.

وأيضًا قال الجنيد رحمه الله: دخلتُ على السريِّ، فوجدته متغيِّرًا، فسألته عن حاله، قال: جاءَ إليَّ شخصٌ من الجنِّ، وسألني عن الحياء، فذكرتُ جوابه[1]، فصار الجنِّيُّ ماءً كما ترى من الحياء.

نقل أنه كانت له أختٌ، فطلبَتْ أن تكنسَ بيته، فما أذنَ لها، وقال: لا أُضيع الوقتَ بكنس البيت. فدخلتْ أُختُه عليه يومًا، ورأتْ عجوزةً تكنسُ بيته، فقالت أختُه: يا أَخي، ما تركتني أَكنسُ البيت، وجاءَتْ أجنبيةٌ تكنسُهُ؟ قال السريُّ: يا أُختي، لا يشتغلْ قلبُك؛ فإنَّ هذه العجوزةَ هي الدنيا، وهي قد احترقَتْ من محبَّتي وعِشقي، وصارت عنّي محرومةً، فطلبَتْ من الله تعالى أن يكونَ لها نصيبٌ منّي، فأعطاها الله تعالى مكنسةً تكنسُ بها بيتي، وتقنعُ بهذا القدر.

أقول: إن الله تبارك وتعالى قادرٌ على جميع المُمكنات، فاعلٌ بالاختيار، يفعلُ ما يشاء، ويحكم ما يريد، وحينئذٍ لا غَرْوَ ولا بُعدَ في أن يصوّرَ الدنيا بصورةِ عجوزةٍ، وبأيِّ صورةٍ يريد بحيث يراها الإنسان، ويؤيِّدُهُ ما رُويَ أن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورةِ عجوزةٍ مخضوبةِ اليَدَيْنِ والرِّجلَيْن. فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا الدنيا. فقال عيسى عليه السلام: أبكرٌ أنت، أم ثيِّبٌ؟ قالت: بل بكر. قال عيسى عليه السلام: كيف ذاك؟ قالت: لأنَّ الرِّجالَ لم يلتفتوا إليَّ وما حالفوني[2]، والذي يَعشقني ويُخاطبني عِنّينٌ لا رجوليةَ له، فلذلك بقيتُ بكرًا. قال عيسى عليه السلام: وما هذا الخضاب على يَديك ورجليك؟ قالت: من عشقني وابتُلي بي قتلتُهم، وخضَّبتُ بدمائهم يديَّ ورجليَّ كما ترى.

---

(١) في (أ): فتفكرتْ جوابه.

(٢) في الأصلين: وما خالفوني، وأثبتُّ ما يناسب المعنى، أو العبارة: وخالفوني. بحذف (ما).

والمراد بهذه الدنيا ما يُبعد العبدَ عن الله تعالى، ويُشغله عن الآخرة، وهي اللَّذاتُ العاجلة، والشهواتُ الحيوانية من الأكلِ والشرب والنومِ واللبس والجماع وغيرها بما تقتضيه الطَّبيعةُ الحيوانيةُ البهيمية والسبعية، وتَشتهيه النفس الأمّارةُ بالسوء، ويمكنُ تجسيدُها وتصويرها كما يمكنُ تجسيدُ الأعمال الحسنة والسيئة للعبادِ يوم القيامة للوزن على رائي، وهذه الدنيا هي المُشار إليها بقوله ﷺ: «الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها إلاّ ذكر الله وما والاه، أو عالمًا ومتعلمًا»[1]. والله أعلم.

نقل أن من كان يُسلّم على السريّ، فيتعبَّسُ السريُّ، ويردُّ عليه الجواب بخُلقٍ سيِّء، فسُئل عن ذلك قال: قال النبيُّ ﷺ: «من سلّم على أخيه المُسلِم ينزلُ عليهما مئةُ رحمةٍ، تسعون على من يكونُ منهما حَسَنَ الخُلق، وعشرةٌ على من يتعبّس منهما[2]» فأنا أتعبَّسُ؛ ليكون الفضلُ لأخي.

نقل أنه رأى يعقوبَ النبيَّ عليه السلام في المنام، وقال له: يا نبيَّ الله، ما هذا المشهورُ في الدنيا من محبَّتِكَ يوسفَ عليه السلام؟ ولك محبَّةٌ كاملةٌ بالنسبة إلى حضرةِ العزَّةِ؟ فنُودي في سرِّه: يا سريّ، احفظِ القلبَ. وأراه اللهُ يوسفَ عليه السلام، فشهقَ السريُّ شهقةً، وغُشي عليه ثلاثة عشر يومًا، ولمّا أَفاقَ، نُوديَ في سرِّه: هذا جزاءُ من يلومُ عشَّاقنا.

نقل أنّه يتمنّى أن يلتقي بأحدٍ من أولياء الله تعالى، فاتَّفقَ له أن رأى شخصًا على جبلٍ، فتقدَّمَ إليه، وسلّم عليه، ثم قال: من أنت؟ فقال الشخص: هو. قال: ماذا تفعلُ؟ فقال: هو. قال: ماذا تأكلُ؟ قال: هو. قال: ماذا تُريد بكلامك؟ فقال: هو. قال: تُريدُ به الله تعالى جلَّ وعلا؟ فشهق الرجل، وماتَ في الحال.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢) في الزهد، باب (١٤)، وابن ماجه ٢/ ١٣٧٧ في الزهد، باب مثل الدنيا، والدارمي في السنن ١/ ٩٤، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٥٧، ٧/ ٩٠، والطبراني في الأوسط ٤/ ٢٣٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٣٤٢.

(٢) لم أجد هذا الحديث في المصادر التي بين يدي.

نقل أنه سُئل الجُنيد عن المحبَّة، فقال الجُنيد: قال قومٌ: هي الموافقةُ[١]، وقوم: هي الإشارةُ، وقالوا غيره. فأخذ السريُّ بجلدِ يده يجرُّهُ، فما طلعَ من موضعه، فقال: بعزَّتِهِ، لو قلتُ يبس جلدي من محبَّته لصدقتُ. قال هذا وغُشي عليه، وخرَّ زائل العقل.

وقال السريُّ: يصلُ العبدُ من المحبَّةِ إلى مقامٍ لو ضُربَ بفأسٍ لَمَا أحسَّ به.

وقال: إذا جاءَ إليَّ بعضُ الناس ليتعلّموا منّي شيئًا من العلم، أقول لهم: اللهم ارزقْهُ العلم، واجعلْهُ مشغولاً به عنّي؛ لئلا يتردَّدَ عليَّ ولا يعرفني.

نقل أن رجلاً اشتغل بالمجاهدة ثلاثين سنة، قيل: بمَ أدركتَ هذا المقام؟ قال بدعاء السريِّ. قيل: كيف كان؟ قال: ذهبتُ إلى باب خلوته نوبةً، وقرعتُ الباب، فقال: من أنت؟ قلتُ: صديقٌ غيرُ أجنبي. قال: فلو لم تكن أجنبيًّا لكنتَ مَشغولاً به، ولم تلتفت إلى سواه. ثم قال: اللهم اجعلْه مَشغولاً بك، بحيث لا يبقى له التفاتٌ إلى غيرك. دعا بهذا الدعاء، ونزلَ في صدري شيءٌ إلى أن وصلتُ إلى هذا المقام.

نقل أنه كان يعظُ الناسَ، فمرَّ بمحلِّه[٢] شخصٌ من ندماء الخليفة اسمه أحمد بن يزيد الكاتب في كوكبةٍ عظيمةٍ مع جماعةٍ من الخدّامِ والغلمان، فدخل المجلسَ، وقال: إلى متى أتردَّدُ في موضعٍ واحدٍ وإلى مكانٍ لا ينبغي أن يذهب إليه! وإنّي قد تضجَّرتُ من ذلك. فلمّا سمعَ كلامَ السريِّ كان يجري على لسانه في تلك الحالة: أنه ليس في ثمانية عشر ألف عالَمٍ مخلوقٌ أضعفَ من الإنسان، ولا يعصي اللهَ أحدٌ من مخلوقاته كما يعصي الإنسان، فالعجبُ كلَّ العجبِ للإنسانِ الضعيف العاجزِ كيف يَعصي الإلهَ القويَّ الكبير؟! فهذا الكلامُ كسهمٍ أثَّرَ في قلبِ أحمد، فبكى إلى أن وقعَ مغشيًّا عليه، فلمّا أفاقَ قامَ وذهب إلى بيته، ولم يطعمْ تلك الليلة شيئًا، وجاء اليومَ الثاني إلى المجلس ماشيًا

(١) في (ب): هي المراقبة.

(٢) في (أ): فمرّ في مجلسه.

لا راكبًا، ووقفَ إلى آخر المجلس، وجاء إليه اليومَ الثالث ماشيًا مُنفردًا، ولمّا تمَّ المجلسُ تقدَّمَ إلى الشيخ وقال: يا أستاذ، قد أمسكني الكلامُ الذي سمعتُ منك في أوّلِ ما دخلتُ مجلسَكَ اليوم الأول، وأبغضتُ الدنيا، وبردت على قلبي، أُريدُ أن أعتزلَ الناس، وأتركَ الدنيا. والشيخ كان يُحدّثُ في النصائح، فما أطاقه الرجل، وتوجَّه إلى الصحراء، ولم يُعلم منه أثرٌ ولا خبرٌ إلى أيام، فجاءتِ امرأةٌ عجوزةٌ باكية تنتف شعرها إلى الشيخ، وقالت: يا إمامَ المسلمين، لي ابنٌ شابٌّ غضٌّ طريٌّ، سمعتُ أنه جاء إلى مجلسك ضاحكًا مُتبخترًا فرحان، وخرجَ باكيًا مُنحنيًا ذا أحزانٍ، ومِنْ ذلك اليوم غابَ عنّي، ولا أَعلمُ مكانه، وقلبي يحترقُ من فراقه، فكيف يكونُ حالي؟ وإلى أيِّ شيءٍ يَصيرُ مآلي؟ فمن غاية تضرُّعِها ترحَّم عليها السريُّ، ورقَّ لها قلبه، وقال لها: لا تتضجَّري، فإنه لا يكونُ إلاّ خيرًا، إذا جاء إلينا فنحن نخبرُك، وأنه ترك الدنيا والأهل والعيال، وتابَ إلى الله تعالى. فبعد أيامٍ جاء إلى الشيخ ليلاً، فقال الشيخ للخادم: لتخبر أُمَّه. فرأى الشيخُ أحمدَ قد اصفرَّ وجهُهُ، ونحل جسمُه، وانحنى ظهره، فقال: يا شيخ، كما أنت نقلتني من الظُّلمات إلى النور، وأَنجيتني بتوفيق الله تعالى عن تلك الأحوال الدَّنية، وأَوصلتني إلى المراتب السنية، أراحَكَ الله تعالى في الدُّنيا والآخرة. وشكرَ اللهَ تعالى كثيرًا على نعمة الفقر وتركِ الدنيا، وكان مشغولاً بهذه الكلمات إذ دخلتْ أُمُّه مع جميع أهله وعياله، وكان له ابنٌ صغير جاؤوا به لديه، ولمّا وقعَ نظرُ أُمِّه عليه، ورأَته في حالٍ ما رأته في مثلِ تلك الحال أصلاً، عليه ثوبٌ عتيق مقطَّعٌ، ولونُهُ متغيِّرٌ، وشعرُه مغبرٌّ أشعثُ، بكت وصاحت، واعتنقته، وشرعوا في التضرُّعِ وفي البكاء، وارتفع صياحُهم بالأنين والبكاء، واجتهدوا كثيرًا ليذهبوا به إلى بيته، فما قبلَ، ولم ينفعْ أنينُهم وبكاؤهم، فقال: يا إمام المسلمين، لِمَ أخبرتَهم، وهم يشوُّشون عليَّ الحال؟ قال الشيخ: جاءَتْ إليَّ أمُّك، وتضرَّعَتْ وجزعت، وأنا وعدتُها بأنك إذا حضرتَ لدي أُخبرُها بالحال. فأراد أحمدُ أن يعودَ إلى مكانه، بكتِ امرأتُه وتعلّقت به، وقالت: جعلتني أرملةً في حياتك، وأيتمتَ

أولادَكَ، ونحن ماذا نفعلُ مع هذا الولد الصغير، وهو يطلبُكَ ولا يَصبرُ عنك؟ فاذهبْ به معك. فأخذه، وخلع عنه ما كان عليه من الثياب النفيسة، وغطّاهُ بقطعةِ خرقةٍ نظيفةٍ[1] غليظةٍ، وأرادَ أن يذهبَ به، فما أطاقَتْ أمُّهُ تلك الحالة، وخطفَتِ الولدَ من يده، وتوجَّه أحمدُ إلى الصحراء والبادية، وصبرت مدّةً، ثم في ليلٍ بعد العشاء جاءَ رجلٌ إلى الشيخ، وقال: يقولُ أحمد ضاقَتْ عليَّ الحالُ، فليصل إليَّ الشيخ مُستعجلاً. فذهب إليه الشيخ، فالتقاه في المقابرِ مُضطجعًا على التراب، وانتهى إلى نَفَسٍ ويحرّكُ لسانَه، فاستمعَ الشيخ، فإذا هو يقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] وانقطع نَفَسُهُ، فجاء الشيخ إلى المدينة باكيًا ليُجهِّزَهُ، فالتقى ناسًا كثيرًا يطلعون من المدينة، فسألهم عن خروجهم، قالوا: سمعنا صوتًا من السماء: من أرادَ أن يُصلّي على وليٍّ خاصٍّ من أولياء الله تعالى فليحضرْ مقابر الشُّونيزية.

نَفَسُ الشيخ وكلماتُهُ كانت مؤثِّرةً في القلوب كما سمعتَ من قصَّةِ أحمد، وكم مثلها! ولو لم يَتربَّ تربيته إلاّ الجنيد لكفى.

ومن **كلامه** أنه قال: يا جماعة الشباب، اجتهدوا في العمل، ولكم قوّةٌ ونشاط فيه، ولا تؤخِّروا العملَ إلى أوان الضعف والفتور في الشيخوخة، وتصير حالُكم كحالي. وحين قال هذا الكلام ما أطاقَ شابٌّ أن يَعملَ مثلَ ما يعمل.

وكان يقول: إني أستغفرُ الله تعالى من ثلاثين سنةً بسبب أنّي قلتُ مرَّةً: الحمدُ لله. قيل: كيف ذلك؟ قال: وقعَ في بغداد حريقٌ، فأخبرني رجلٌ بأنَّ حانوتك نجا من الحرق، فقلت: الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادمٌ على ما قلتُ، حيثُ أردتُ لنفسي خيرًا ممّا للمسلمين.

وقال: إن فاتَ حرفٌ من وِردِكَ فلا قضاء له.

وقال: باعدوا أنفسَكم عن جيران الأغنياء وأهلِ السوق وعلماءِ الأمراء ـ أي

---

(١) قوله نظيفة ليست في (ب).

الذين يَحومون حول الأمراء ـ ومَنْ أراد سلامةَ دينه، وراحةَ قلبه وجسده، وقلّةَ غمومه وأحزانه فليعتزلْ عن الناس؛ فإنَّ الزمانَ زمانُ العزلة والوحدة.

وقال: الدنيا كلُّها فضولٌ إلاّ كُسيرةَ خبزٍ تسدُّ رمقَكَ، وشربةَ ماءٍ تسكّن عطشَك، وسترًا يسترُ عورتَكَ، وعملاً تعملُ به، وبيتًا تسكن فيه.

قال: المعصيةُ إن كانت عن شهوةٍ فيُرجى أن يُغفرَ لها، وإن كانت عن كِبرٍ فبعيدٌ، بل قد لا يُرجى العفو عنها؛ لأنّ معصيةَ إبليسَ كانت من الكِبر، وزلّةَ آدمَ من الشهوة.

و: لو دخلَ رجلٌ بستانًا فيه أشجارٌ كثيرة، وكلُّ ورقةٍ تقولُ بلسانٍ فصيح[1]: السلامُ عليك يا وليَّ الله، يجب عليه أن لا يغترَّ، ويخافَ أن يكونَ[2] مكرًا واستدراجًا.

و: علامةُ الاستدراجِ أن يَعمى الرجلُ عن عيوب نفسه.

و: المكرُ قولٌ بلا عمل.

و: الأدبُ ترجمان القلب.

و: من عجزَ من تأديب نفسِهِ، فهو عن تأديبِ غيره أَعجزُ.

الحمقى كثيرٌ بين الناس، وهم الذين لا تُوافقُ أقوالُهم أحوالَهم وأفعالهم.

من لم يعرف قدرَ نعمةٍ تزولُ قريبًا.

اللسان ترجمانُ القلب.

وجهُكَ مرآةُ قلبك ـ يعني يُرى في وجهك ما أَخفيتَ.

أقول: والأمر كما قال؛ لكن لا يطَّلعُ على ذلك إلاّ أهلُ الفراسة. والله أعلم..

القلوبُ على ثلاثة أقسام: قلبٌ مثلُ الجبل لا يُمكن تحريكُهُ أبدًا، وقلبٌ

---

(١) في (ب): بلسان الحال الفصيح.

(٢) في (أ): أن لا يكون مكرًا.

مثلُ الشجرة، فأصلُها ثابتٌ لكنَّ الريحَ تُحرِّكُ أغصانَها، وقلبٌ مثلُ ورقةٍ يابسةٍ متعلّقةٍ؛ فإنّها تدورُ مع الرياح أينما دارت.

أقول: أما الأولُ: فقلوبُ الخواصِّ وخواصِّهم مثل الأنبياء والأولياء والصدّيقين؛ فإنّها قد رسختْ بتوفيق الله تعالى في المعرفة والإيقان والإيمان بحيث لا يَنْحرف عن هذا المقام من الأزل إلى الأبد بهبوبِ رياح الوساوسِ والهواجس، ولا بالنظر إلى لذّاتِ الدنيا وزخارفها كالجبال الراسية التي لا تتحرَّكُ أصلاً.

والثانية: قلوب المؤمنين؛ فإنّها تميلُ إلى الشهوات والمعاصي بوسوسةِ الشيطان، وطلب النفسِ الأمّارة بالسوء أحيانًا؛ لكن لا تزولُ من أماكنها بالكلّيّة، فأصلُها ثابت، والأغصانُ تتحرَّكُ كالشجرة الثابتة.

والثالثة: قلوبُ الكفار والمنافقين؛ فإنّها تتبعُ الشيطانَ والنفسَ الأمّارة دائمًا كالورقةِ اليابسة المقلوعةِ التابعة للرياح.

والأوّل هو النفس المُطمئنة، والثاني اللوّامة، والثالث الأمّارة بالسوء. والله أعلم..

قلوبُ الأبرار متعلّقةٌ بالخاتمة، خائفةٌ منها، وقلوبُ المقرّبين بالسابقة وخائفة منها.

و: الحياءُ والأُنسُ ينزلان في القلبِ، فإن وجدا فيه الزُّهدَ والورعَ يسكنان فيه، وإلاّ يرجعان.

و: خمسةٌ لا تسكنُ في قلبٍ إن كان فيه غيرُها: الخوف من الله تعالى، والرجاءُ منه، والمحبّة له، والحياءُ منه، والأُنس به.

أقول: يعني هذه الخمسة تطلبُ قلبًا خاليًا عن غيرِها من محبّة الدنيا، والصفات الذميمة من الحرصِ والطَّمع والبغضاء والحسد والكِبر والغضب والهوى وغيرها لتسكنَ فيه، وإلاّ لا تسكن، قال الشاعر:

أَتاني هَواها قبلَ أَنْ أَعرفَ الهَوى فصادفَ قلبي خاليًا فتمكَّنا[١]

والله أعلم..

و: مقدارُ كلِّ شخصٍ في نفسه مقدارُهُ عند الله.

و: أَفهمُ الناسِ وأذكاهم مَنْ فهمَ أَسرارَ القرآن وتدبَّر فيها.

أصبرُ الناس من يكونُ صابرًا على الحقِّ.

ربّ رجلٍ عَمِي قلبُه، ولا يستغفرُ باللسان.

و: يصدرُ من التوبة الاجتهادُ، ومن الاجتهادِ الصدقُ، ومنه الزُّهدُ، ومنه التوكُّلُ، ومنه الاستقامةُ، ومنها المعرفة، ثم تحصل لذَّةُ الأُنس، ثم الحياء، ثم الخوفُ مِنْ مَكرِ الله تعالى والاستدراج[٢].

من عرف ما يخافُ منه، ويعلمُ حقيقةَ ذلك، هانَ عليه الاجتنابُ من المناهي[٣].

من كان أَعقلَ وأَعرفَ بالله فهو أَقربُ وصولاً إلى المقصود.

أفضلُ الأعمال البكاءُ على فوتِ وقتٍ لم يوافق فيه أمرَ الله تعالى.

من التفتَ إلى الدنيا بالإرادة والرِّضا يخرجُ من قلبه نورُ الفقر والزهد.

الدنيا مزبلةٌ، والمزبلةُ مجمعُ الكلاب، والكلبُ إذا قضى حاجتَهُ من المزابل ويشبع فيها يعود إلى مكانه، فيكون أَنقصَ من الكلب، وأذلَّ منه وأخسَّ من لا يقنع من الدنيا بمقدارِ حاجته[٤].

و: من لم يعرفْ نفسَه فهو مغرورٌ في دينه.

إن الله تعالى ما ابتلي أَحدًا بشيءٍ أَشدَّ من الغفلة، والقلبِ القاسي.

---

(١) البيت في ديوان مجنون ليلى ٢٨٢، وينسب لابن الطثرية، وفيات الأعيان ٦/ ٣٧٠.

(٢) سيأتي هذا القول صفحة ٣٦٧ من قول أحمد بن أبي الحواري.

(٣) في (أ): ويعرف حقيقة ... الاجتناب من المعاصي والقول لابن أبي الحواري، انظر ص ٣٧٦.

(٤) هذا القول لأحمد بن أبي الحواري، انظر طبقات المناوي ١/ ٥٣٥.

الأنبياءُ عليهم السلام كانوا يَكرهون الموتَ لفتورِهم عن ذكرِ الله تعالى بسببِ الموت.

و: محبَّةُ الله تعالى إنَّما تظهرُ في محبَّةِ طاعته.

من أعجبَهُ أن يُذكرَ بخيرٍ فهو مُشركٌ في العبادة، لأنَّ مَنْ عبدَ الله تعالى بالمحبَّةِ والإخلاصِ لا يُحبُّ أن يطَّلَع على أعماله إلاّ محرمٌ.

اللهم، نوّر قلوبَنا بأنوارِ معرفتك، وأَغرقْنا في بحارِ محبَّتك، وأَلهمنا يا الله رُشدَنا يا كريم يا رحيم.

* * *